وزارة الثقافة والاعلام

سلسلة كتب الثقافة المقارنة

الاستشراق

٤



العنوان: اعظمية - بغداد - العراق ص.ب. ٤٠٣٢ . تلكس: ٢١٤١٣٥ . هاتف: ٤٤٣٦٠٤٤

كافة المراسلات تعنون باسم السيد رئيس التحرير



دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد - ١٩٩٠

محتويات العدد

تصميم سلسبيل ناجي شاكر

شباط ١٩٩٠

أ. د. ولفكانك روشيل

جامعة لايبزغ

النحاة العرب القدامى وعلم اللغة الحديث

بلغ العلماء العرب في القرون الوسطى، وخاصة في القرن التاسع والعاشر المرتبة القصوى في جميع الفروع العلمية المعروفة آنذاك في العالم، وفي طليعتها علم الفلسفة، والرياضيات، وعلم اللغة، والتنجيم، والجغرافية، والطب، والطبيعيات، وهي العلوم التي ترتبط بدوافع علمية انسانية عامة، وبالعلوم الاخرى التي نجمت عن الحاجة المباشرة للامة العربية ودينها، كالفقه والشريعة والتاريخ وفقه اللغة .

لقد ادى العلماء العرب في تلك الحقبة من الزمن دوراً ذا اهمية في تاريخ العالم، حيث واصلوا البناء على تركة السلف، وقدموا ثمار نتاجاتهم للعالم الآتي، اساساً ومنطلقاً لمواصلة المزيد من التقدم.

والشيء المؤسف ان هذه الحقيقة البسيطة لم تكن معروفة خارج اجواء العالم العربي الا على نطاق محدود، وان تقديراً خاطئاً وليس حميداً كان يبرر الراي، عبر قرون طويلة، بان اثينا وروما كانتا هما المنبع الثقافي والروحي لما يسمى بالمغرب الاوربي وان العرب لم يكونوا سوى نقلة لكنوز الحضارة القديمة. ان انطباعاً كهذا يمكن ان يستخلص من مطالعة المؤلفات الاوربية التي تتناول تاريخ مختلف فروع العلم السالفة الذكر.

نحن نقرأ الكثير عن اليونانيين الذين نظموا ونسقوا بلاشك الجزء الاكبر من المعارف الانسانية آنذاك، ووضعوها في مدار علمي، بينما نقرأ القليل عن العلماء العرب الذين عاشوا في القرون الوسطى، وعن مؤلفاتهم الاصيلة.

وهذا ينطبق دونما شك، على علم اللغة كذلك، واذا تحدثنا في اوربا عن التثمين غير الكبير للعلماء العرب في القرون الوسطى، فان استثناء لابد من الاشارة اليه، يستقطب حوله كوكبة صغيرة من الرجال الذين صاغوا اعجابهم واحترامهم للعلوم العربية، ورسخوا طوال حياتهم كل ما هو مهم في هذا المجال، وهم اختصاصيو اللغة العربية، او كما يسمون عموماً عندنا، بالمستشرقين. واذكر بهذا الخصوص عدداً من المؤلفات المهمة في مجال علم اللغة العربية، والتي ألّفها او اشرف على اصدارها مستشرقون اوربيون.

ان العالم الفرنسي «ديرنبورج Derenbourg» قام باصدار كتاب سيبويه في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٨١ و١٨٨٩، واشتغل العالم الالماني «جوستاف يان Gostav yahn» مدة ستة عشر عاماً اي من عام ١٨٨٤ حتى عام ١٩٠٠ في ترجمة كتاب سيبويه الى اللغة الالمانية. وفي ذات الفترة من الزمن اصدر يان «شرح ابن يعيش، على مفصل الزمخشري». وقام المستشرق الالماني «آرتور شاده Arthor Schaade» في عام ١٩١١ بتاليف كتاب حول ما كتبه «سيبويه» في «الكتاب» بصدد اللفظ والصوت.

وفي عام ١٩١٣ اصدر «جوتهولد وايل Gotthold Weil» كتاب «الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين» لـ«ابن الانباري». ولايجوز لنا ان ننسى المؤلف المعاصر الشهير «العربية» وهو دراسات في اللغة واللهجات والاساليب، والذي الفه استاذي الجليل البروفيسور «يوهان فوك Johann Fueck».

وبدافع من نشر كتاب سيبويه من قبل «ديرنبورج» حاول

في اواخر القرن التاسع عشر، مستشرق فرنسي آخر اسمه «دونا فرنييه Donat Vernir» ان يعرض ويشرح اللغة العربية حسب اصول النحويين القدامى العرب تحت عنوان: Grammaire arabe compose.

الا ان مؤلف المستشرق الانكليزي «مورتمر هاول M.S. Howall» وعنوانه A Grammar of The Classical Arabic Language كان يمتاز بالدقة والاتساع والعمق، عن كتاب زميله الفرنسي. وقد جمع المستشرق الانكليزي «هاول» كتابه من كتب النحويين القدامى العرب، ونشره في الفترة الواقعة بين اعوام ١٨٨٠ و١٩١١ .

لقد ادرك المستشرق الفرنسي المعروف «دي‌ساسي de sacy» الذي ولد في علم ١٧٥٨ وتوفي في عام ١٨٣٨ بان مسالة فهم الادب العربي المكتوب في فترة القرون الوسطى، تستلزم معرفة منتظمة للنظام اللغوي للنحويين العرب القدامى. وعالج في كتابه المشهور في اوربا وعنوانه (Grammaire arabe) (الطبعة الاولى علم ١٨١٠) عالج النحو العربي بطريقتين، اولاهما حسب الاصول الاوربية، والاخرى حسب اصول النحاة العرب.

وبالاضافة الى ذلك فقد نشر «دي‌ساسي» كتاباً ضمنه نماذج من ادب النحو العربي ابتداء من كتاب سيبويه حتى كتاب «الاعراب» لابن هشام تحت عنوان.

(Anthologie Jrammaticale 1829).

ان التقدير الكبير الذي كان يكنه «دي ساسي» للنحويين العرب، نقله بامانة تلميذه الفذ «فلايشر H.L. Fleischer» المولود في عام ١٨٠١ والمتوفى في عام ١٨٨٨، الى جامعة لايبزغ حيث كان قد اشغل منصب الاستاذية قرابة نصف قرن هناك وكان ابرز عالم اوربي في اللغة العربية القديمة.

وبعد هذه الاشارة العابرة التي تحمل ضمناً التقدير الكبير للنحاة العرب القدامى، لدى المستشرقين الاوربيين نتوجه الآن الى موضوع [المقالة] بالذات:

اذا اردنا ان نخلق علاقة بين النحويين القدامى العرب، او بالاحرى بين النظام النحوي الذي انجزوه ومعارف علم اللغة الحديث، وان نستفيد من هذه العلاقة، فان ذلك يفترض بطبيعة الحال التاكيد ان نظام النحو العربي القديم، هو نظام شامل، وقابل للاختبار، ولا يزال يطفح بالحيوية.

وكما هو معروف فان النحو العربي القديم يحقق تلك الشروط. لذلك ساورد بعض الملاحظات المقتضبة بهذا الخصوص .

لقد جمع سيبويه ممثل مدرسة البصرة النحوية، في اواخر القرن الثامن كل ما كان معروفاً في مجال النحو، وعرض في مؤلفه الواسع الشهرة المسمى «الكتاب» لاول مرة قواعد اللغة العربية بشكل منتظم. وخضع هذا الكتاب لعدد من التوسيعات والاضافات، الا ان هيكله بقي هو الانموذج والمعيار الاساسي للخلف من النحويين. اننا نجد نظام سيبويه حتى يومنا هذا يعيش في الكتب المدرسية وكتب قواعد اللغة العربية الحديثة المنشورة في العالم العربي. وهذه الحقيقة تدل اولاً على ان النحو العربي في البلدان العربية منذ القرن الثامن، اي منذ سيبويه، يتمتع بتقليد مستمر، وتدل الحقيقة ثانية على ان هذا النظام هو نظام صالح سواء بالنسبة للتعليم او بالنسبة لدراسة النحو العربي بصورة علمية.

ولنطرح الآن السؤال بخصوص مبادىء نظرية اللغة للنحويين العرب وبشان المميزات الخاصة بنظامهم.

من الطبيعي انني لن اتمكن من التعرض لهذه القضايا الا بشكل موجز جداً، في اطار هذا البحث :

ان اللغة بالنسبة للنحاة العرب القدامى، عبارة عن نظام جامد غير قادر على التطور، مكون من اشارات حسية، تتمكن من ان تجمع حسب قواعد محددة في جمل ذات معان .

ان اللغة هي منطق تطبيقي، فكل جملة هي حكم، وعلى هذا فهي تتضمن مسنداً ومسنداً اليه. فالاسم عبارة عن «زعم»، يتطلب «رداً» ياتي اما على شكل تكملة، اي «خبر» او على شكل «تقوية» تاتي بصورة صفة «نعت». وبهذه الطريقة ينشا نظام متكامل من كلمات مزدوجة تمثل مفهومين احدهما مشروط بالآخر او تابع له: مسند ومسند اليه، مبتدأ وخبر، فاعل ومفعول به، مستثنى ومستثنى منه، بدل ومبدل عنه، صفة وموصوف، والى ما هنالك.

ان النحو العربي، هو نحو قياسي، وعلى هذا تكون مهمته ان يعلّم كيف يجب ان يتكلم الناس، وليس وصف كيفية تكلمهم في الواقع. وليس موضوع ابحاث النحو العربي اللغة العربية في تطورها التاريخي او في علاقتها باللغات الاخرى، بل هو اللغة العربية الكلاسيكية

الفصحى، كما كانت على لسان بعض القبائل البدوية، وكما كانت تجري في الشعر العربي الكلاسيكي، وكما وجدت تعبيرها الاسمى في لغة القرآن غير القابلة للتقليد البشري.

ان علم اللغة الحديث الذي ابتدأ عام ١٩١٦ بصدور الكتاب الشهير (Cours de Linguistigue général) للعالم السويسري فردیناند دي سوسير ينطلق عند تحديد اهدافه واساليبه من الفكرة الاساسية وهي جعل علم اللغة علماً قائماً بذاته. يقول ممثلو علم اللغة الحديث ان اللغة كموضوع بحث علمي قد عولجت ونظر اليها حتى الآن من وجهات نظر وباساليب خارجة عن ذاتها. وحتى الآن لايبدو فكرة مالوفة ان التكلم على هيئة لغات متفرقة، ومجموع اللغات يمكن ان يكون موضوعاً لنظرية منتظمة وقابلة لفحص اختباري.

ان ممثلي علم اللغة الحديث يرون ايضاً انه من الخطا اعتبار ان الوظيفة الاجتماعية للغة كوسيلة تفاهم هو جوهرها، ولكن جوهر اللغة وطبيعتها يظهران في طريقة وشكل عملها، حيث تتمكن وهي نظام من الاشارات من توليد كمية غير محدودة من العبارات او الجمل بواسطة كمية محدودة من القواعد، ولذا فان الكمية غير المحدودة من الجمل لا يمكن توليدها الا بواسطة نظام محدود من قواعد التركيب او عناصر اساسية معينة لأن الانسان لا يستطيع ان يختزن في دماغه الا كمية محدودة بعينها، ان وصف وتوضيح نظام قواعد التركيب والعناصر الاساسية هذا، والضروري لتوليد كمية ممكنة من العبارات الصحيحة والذي ينعت بالنحو هما الوظيفة الجوهرية لعلم اللغة الحديث.

ومن أجل حل هذه المهمة ابتكر عدد من الاساليب المتفاوتة عن بعضها جزئياً، وتجمع كلها تحت اسم «التركيبية». ولا نود ان نتطرق الى الاساليب المختلفة او المتفاوتة تلك، ونوجز القول انها جميعاً يجب ان تكون صالحة لحل المهمات التالية:

اولاً :الوصف الدقيق للاستعمال اللغوي الفعلي، اي كيفية تكلم المتكلم بشكل فعلي ضمن مجموعة لغوية لقوم ما (parole, surface structure).

ثانياً ـ التجريد لهذه اللغة الواقعية على هيئة قواعد نحوية. (Langue, deep structure).

ثالثاً ـ التوضيح الخاص بوظيفة اصول القواعد النحوية التي تولد جملاً معينة يتكلم بها في اللغة الواقعية .

وانطلاقاً من هذه الفكرة نشأ في علم اللغة الحديث قسم يبحث الخصائص التركيبية للغات، ويتناول تشابه لغة باخرى او إختلاف لغة عن لغة اخرى. ويطلق على هذا القسم في البحوث اصطلاح طيبولوجيا اللغة.

واعتماداً على ذلك يمكن للمرء إذن ان يقارن لغة من اللغات بلغة اخرى.

إن المقارنات الضيقة المقتصرة على القرابة التاريخية بين العوائل اللغوية، مثل اللغات السامية، واللغات الاندو ـ اوربية ، كما كانت سائدة في اوربا في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، اصبحت تفقد اليوم مكانها الرئيسي، في الوقت الذي اصبح الاهتمام ببحوث طوبلولوجيا اللغة يزداد يوماً عن يوم آخر.

ونرغب اثر هذه النظرة على مهام واهداف علم اللغة الحديث، في العودة ثانية للانشغال مع النحاة العرب، فحينما يتمحص المرء الفرق الزمني الذي يتجاوز عشرة قرون يجد انه ليس هناك تبايناً كثيراً، بين آراء النحويين العرب، والبحاثين المعاصرين، كما يفترض المرء في البدء، وعلى اية حال فان الفرق اليوم يبدو اضيق منه في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عنه بالنسبة للبحث التاريخي المقارن في علم اللغة باعتباره علماً حديثاً.

ويحتاج المرء مرة واحدة فقط، لأن ينظر ويحدد، التعاريف، بشأن ماذا يفهم تحت لفظة لغة، وذلك بسبب وجود التشابه. فاللغة لدى النحويين العرب هي نظام من الاشارات الحسية التي تصبح بعد جمعها بموجب قواعد ثابتة جملاً معبرة. إن علم اللغة التركيبي الحديث يعرّف اللغة بانها نظام في مقدوره ان ينتج عبر كمية محدودة من القواعد كمية غير محدودة من الجمل.

وتوجد بالاضافة الى التشابه في الآراء حول سمة اللغة كنظام مجموعة كبيرة من الفوارق بين نظرية اللغة في عصرنا، وبين نظرية اللغة في القديم، وتكمن هذه الفوارق قبل كل شيء في مجال طرق البحث، وتتمركز ـ حسب وجهة نظري ـ في طرق البحث هذه السمة الخاصة لعلم اللغة الحديث، والذي وصل، كما هو الحال بالنسبة للعديد من

العلوم الاخرى في اطار منهجيته، الى درجة عليا من التجريد النظري.

إن اسباب ذلك تكمن في تطور العلم والتكنيك وخاصة في السنوات الخمسين الاخيرة، فقد ظهرت فروع علمية جديدة تبحث بشكل عام وظيفة الانظمة مثل ـ الكوبرنيتيك ونظرية الاعلام و(فن التوجيه والضبط).

إن الاستعمال دائم النمو للماكنات الحاسبة (Computers) يحول هذه النظرية العلمية إلى التكنيك. وان **استخدام علوم الرياضيات في جميع العلوم بدا يغطي حتى العلوم الاجتماعية. ويؤدي هذا الاتجاه العام في التطور بالعلوم الى تقوية التجريد النظري بشكل مستمر، والذي تكون نقطة الانطلاق فيه مرة اخرى: تحاليل الشكل الدقيقة.**

ونجد كذلك في هذه العلاقة رابطة مباشرة بالنحاة العرب المعروفين كاساتذة في التحليل الشكلي.

ان الوصف الدقيق للشكل الخارجي كان يحتل لديهم المكان الرئيسي على التوضيحات الوظائفية او التوضيحات (السمانتيكية) عند صياغة الكلمات.

ويمكن ان نسمي في مجال الاصطلاحات النحوية الاختصاصية بعض الامثلة.. فمثلاً المبتدا: وانطلاقاً من هذا المعنى اصبحت هذه الكلمة في القواعد ترمز الى «المسند اليه» في جملة اسمية يقع فيها كما هو معروف المسند اليه في بدا الجملة دائماً.

ومثال آخر فالمضارع باعتباره اشارة لصيغة يفعل التي تعبر عن حدث في الحاضر وفي المستقبل. ولم يختر المرء مصطلحات اخرى مثل الحال او الحاضر التي يمكنها ان تناسب الماضي كشارة لصيغة فعل. ان المضارع معناه «المشابه للاسم» ويسمى هكذا لأن الاسم وصيغة يفعل يعتمدان على الاعراب.

يتمكن المرء من الاستطراد في هذا التعداد وإدراج امثلة كثيرة اخرى. وانا افكر بشكل خاص في الكلمات التي كثيراً ماتستخدم مثل: رفعٌ/رفع، نصبٌ/نصب، جرٌ/جر، جزمٌ/جزم. وربما كان المثال التالي مهماً في هذا المجال.

نقرا في كتاب القواعد الكثير الاستخدام: «الأجرومية لمحمد بن داوود» الصنهاجي (المتوفى عام ١٣٢٣) في باب الافعال مايلي:

الافعال ثلاثة: ماضٍ ومضارع وامر نحو ضربَ، يضرب، إضربْ. فالماضي مفتوح الآخر ابداً والامر مجزوم ابداً والمضارع ماكان في اوله احد الزوائد الاربعة يجمعها قولك «انيت» وهو مرفوع ابداً حتى يدخل عليه ناصب او جازم.

اما عن الوظيفة الزمانية للافعال فلانجد اية إشارة لها. ان الاجرومية هو كتاب الاقتصار على الاهم. ووظائف الفعل وقعت هنا ضحية الاختصارات الضرورية.

لقد توصل النحاة العرب في تركيزهم على التحليل الشكلي للغة من وجهة نظر علم اللغة الحديث الى بعض المعارف المهمة. واريد ان اؤكد هنا بشكل خاص تقسيمهم للجمل الى جمل إسمية وجمل فعلية، وبصورة عامة، حيث تكون مقياس انتساب الجملة الى احدى الفئتين بداية الجملة.

وعلى هذا تكون كذلك جملة اسمية، الجملة التي تحتوي على فعل بشرط الا يقع هذا الفعل في اول الجملة. لكن هذا التقسيم للجملة هو التقسيم نفسه الذي يؤخذ به في علم اللغة الحديث فيما يتعلق بطوبولوجيا موقع الكلمة.

يتحدث المرء عما يسمى لغات.. فعلٌ، فاعلٌ، مفعولٌ به، ومايسمى لغات، فاعلٌ، فعلٌ، مفعول به، المقصود بها تلك اللغات التي يبدا تركيب جملها الاساسي اما بالفعل او بالأسم..

وكذلك فان قرار النحويين العرب، على اعتبار الاسم وصيغة «يفعلُ» وحدة تصريفية من ناحية العوامل الشكلية هو قرار هام في وجهة نظري. وفي جملتي اريد ان يخرج من البيت، واريد خروجه من البيت، يفسر النحويون صيغتي «يخرج» و«خروجه» نصباً من حيث الاعراب.

انني أرى ان هناك في الواقع علاقة نحوية، كان اختبارها بالنسبة لعلم اللغة الحديث، بخصوص العموميات النحوية، اختباراً مثمراً .

ومن البديهي، ان هناك مواد اكثر بكثير تستحق دراسة ادق .

إن النحاة العرب لم يصفوا ويجمعوا المواد اللغوية الفنية، حسب، وانما حاولوا توضيح العلاقات النحوية في الكثير من الاحيان. فتوضيح العلاقات النحوية بالضبط هو متطلب من متطلبات علم اللغة الحديث .

فمثلاً ان النحاة العرب ينعتون «العامل» على كلمة لها قوة رفع كلمة اخرى او جرها او نصبها اوجزمها . اي ان

«العامل» قد يكون رافعاً او جاراً او ناصباً او جازماً. إن النحاة العرب يفترضون تأثير «العامل» حتى في الحالات التي ليست موجودة في النص. وفي مثل هذه الحالات فانهم يطلقون التقدير او المعنى. وبذلك فانهم يفرقون حتى وإن لم يكن في معنى نظام شامل بين التركيب الظاهري السطحي والتركيب الباطني (surface structure–deep structure). العميق، اي بين جمل اللغة المتكلمة فعلياً (التركيب الظاهري السطحي) وتجريدها في القواعد النحوية (التركيب الباطني العميق). وكذلك فاننا نشير بشكل خاص الى مهارة النحاة العرب في مشاهدة اللغة ووصفها. وفي هذا المجال يسترعي اهتمامي بشكل خاص الوصف الدقيق للصوتيات، الشامل الذي يكاد ان يكون تقديماً حديثاً، وقد ادى وصفهم الدقيق لها الى ان ينشغل بعض المستعربين الاوروبيين بنظام - الصوتيات - او بنظام لفظ الحروف - في اللغة العربية التقليدية، انشغالاً تفصيلياً. واذكر بهذا الخصوص دراسات «شادة» و«بريفمن» و«كانتينو».

واشير ايضاً الى ملاحظاتهم الصائبة التي اعربوا عنها احياناً للوظائف الزمنية للصيغ الفعلية بالرغم من انهم لم يصلوا في اي موقع من مؤلفاتهم الى عرض او تقديم منتظم لهذا الموضوع، واورد هنا امثلة بهذا الخصوص.

قد التقريب، وتعريفها كما يلي: قد تقرب الماضي من الزمان الذي انت فيه (لابن يعيش).

والمثال الثاني، هو الفرق بين انا قاتلٌ غلامك بمعنى الماضي وانا قاتل غلامك بمعنى المستقبل.

والمثال الثالث التفريق الدقيق بين المضارع وصيغة فاعل المتقاربة له. ووظيفة الصيغة الاول - المضارع - يطلقون عليها مصطلح «تجدد» اي إستمرار ذي تجدد متناوب لأوان الحدث. والصفة الثانية يطلقون عليها «ثبات» اي الاستقرار البسيط «لحال» وهناك يمكن ذكر امثلة اخرى كثيرة.

وفي نهاية مقالتي ارجو ان اكون وفقت في توضيح اهمية اعمال النحويين القدامى العرب بالنسبة لعلم اللغة الحديث ومكانة علم اللغة العربية في القرون الوسطى من وجهة نظر علم اللغة التركيبية الحديث.